الصحراء الجزائرية في كتابات المستشرقين الفرنسيين: "دوماس أنموذجا".

د. هرباش زاجية*

انطلقت القوى الأوروبية الكبرى في بداية القرن 19م في صراع محموم للحصول على أكبر عدد ممكن من المستعمرات التي تحتاج إليها في ثورتها الصناعية، ولم يكتب لهذا الصراع النجاح إلا في ظل تجنيد فئة كبيرة من الرجال الذين ربطوا بين العمل العسكري والإنتاج الفكري، وخلصوا فيه إلى أن السيطرة على تلك المجتمعات البدائية حسب زعمهم لا يتأتى إلا إذا شملته دراسة ميدانية تصل إلى أعماق تراثها وعاداتها ولغاتها وآدابها وعلومها ومعتقداتها[1] وأساطيرها، وكان دوماس من بين هؤلاء الذين جمعوا بين العمل العسكري والفكري الذي فتح أبواب الصحراء الجزائرية وإفريقيا أمام القوات الفرنسية المستعمرة في فترات لاحقة.

I) التعريف بشخصية دومـــاس: هو ملشيور جوزيف أوجين دوماس **Melchior Joseph Eugène Daumas** المولود في **14** جويلية **1803**ن بمدينة دليمونت (سويسرا)، التحق بالخدمة العسكرية في سن التاسع عشرة، ووطئت أقدامه التراب الجزائري في سنة **1835**م أين أرسل إلى الفرقة الثانية لإفريقيا، ودأب على تعلم اللغة العربية التي أتقنها بسرعة وبسهولة فائقة[2].

إثر التوقيع على معاهدة التافنة في **20** ماي **1837**م[3] عين قنصلا لدى الأمير عبد القادر، واستقر في منطقة معسكر لمدة سنتين حيث عمق معارفه حول البنية الاجتماعية للغرب الجزائري، ونظام الدولة الجزائرية الذي وضعه الأمير عبد القادر، وكان على اتصال دائم بليون روش **Léon Roches** حيث نبهه لاستغلال نفوذه مع الأمير عبد القادر لأداء واجبه والقيام بمهمته خدمة لوطنه[4]، وبعد نفي الأمير إلى فرنسا أسندت إليه مهمة مرافقته[5] قبل التعليق على كتابه الذي ألفه عن خيول الصحراء[6].

---

*- أستاذة محاضرة ب في التاريخ الحديث والمعاصر- قسم التاريخ- جامعة معسكر.

استغل دوماس هذه الظروف لتعميق ثقافته عن القطر الجزائري وبخاصة فيما تعلق بالناحية الغربية والجنوبية الغربية، وفي سنة 1841م عينه الجنرال بيجو Bugeaud مسؤولا عن المكاتب العربية[7]، وفي سنة 1850م عين على رأس مصلحة الجزائر في وزارة الحربية، ثم في 1852م أصبح مديرا للشؤون الجزائرية ومستشارا للدولة الفرنسية، ونائبا في مجلس شيوخها.

خلال ممارسته لمهامه وضع نظاما جماعيا لجمع معلومات دقيقة عن الأهالي الجزائريين مما سمح له بتطوير كتاباته التي جاءت بطريقة تحليلية، فقد عرف المجتمع الجزائري عن قرب بمختلف فئاته واحتك بحياته الاجتماعية والدينية التي وصفها في كتاباته المختلفة قبل وفاته سنة 1871م.

II) أهـــم مؤلفاته:

- الصحراء الكبرى 1848.
- العادات والتقاليد الجزائرية 1853.
- خيول الصحراء 1858.
- الحياة العربية والمجتمع الإسلامي 1869.

III) كتـــاباته حول الصحراء: يشير في كتابه الصحراء الكبرى أن محتواه شمل التعريف بالعادات والأفكار والديانات وحياة الأهالي بمختلف وجوهها، وأن معرفته لإفريقيا من الداخل ستفتح لهم الأبواب على مصراعيها أمام تجارة المستعمرات الفرنسية التي تبقى قوافلها وسيلة الاتصال الوحيدة التي تربط بين الشمال وهذه المناطق الإفريقية، ويذكر أن محاربة الدين الإسلامي في المناطق الساحلية يتطلب أيضا اللجوء إلى نفس الأسلوب في منطقة السنيغال وبحيرة تشاد[8].

إننا إذا أردنا حسب قوله قيادة القوافل إلى السودان فإننا سنجد أنفسنا في مواجهة محمد (أي الرسول محمد صلى الله عليه وسلم) وجها لوجه، فالحركة الإسلامية التي لم نتوصل بعد إلى معرفة حقيقتها مازالت تتطلب منا البحث عن الوثائق الجديدة التي سنضعها بدورنا بين يدي كل من يريد أن يكتب عن قضية العبودية التي شغلت أوروبا في هذه الآونة، ولهذا فقد تمكن من جمع الكثير من المعلومات التي كُتبت سلفا عن الشريعة المحمدية لفهمها[9].

كتابه حول الصحراء الجزائرية لم يظهر بصورة انفرادية تلقائية، بل جاء بعد الاطلاع المكثف على مختلف الكتابات التي ألفت من قبله[10]، وقد اختمرت في ذهنه فكرة الكتابة نتيجة التقائه برجل من قبيلة الشعانبة بمتليلي يدعى سيد الحاج محمد أثناء إشرافه على إدارة مكتب الشؤون العربية، حيث التقاه في الجزائر إلاّ أن هذا الأخير توجس خيفة من أهداف المسيحيين الخفية التي يضمرونها للمسلمين لكن دوماس وبفضل حنكته السياسية وحسن معاملته تمكن من كسب ثقته التي أثمرت بعرض سيد الحاج بنفسه القيام برحلة إلى بلاد السودان، والتي ستمكنه من الحصول على تقرير مفصل عنها مقابل مبلغ مالي قدرت قيمته بـ400 دورو أي ما يعادل 2000 فرنك فرنسي.

كان هذا العرض حسب دوماس يعني الكثير لفرنسا التي دفعت مبالغ طائلة مقابل الحصول على خدمات أقل أهمية لمشروعها الاستعماري، ويعبر عن ذلك بقوله: "...إن سيد الحاج محمد يعتبر هذه الرحلة الرهيبة في اعتقاده- دوماس- مجرد نزهة..."[11] نظرًا لما تنطوي عليه من أهداف خفية كلها تصب في قالب خدمة فرنسا الاستعمارية.

IV-محتويات كتاباته: تعتبر هذه الكتابات دراسة ميدانية وتشريحية وتحليلية للبنية الاجتماعية للمجتمع الجزائري الصحراوي، وتتضمن المحاور التالية:

1- مسيرة القوافل التجارية: ترتبط مسيرة القوافل التجارية بصورة مباشرة بشخص "الخبير" أو "الدليل" الذي تسلم له مهمة قيادة القافلة فيحدد موعد انطلاقها والمحدد بيوم الخميس، تفتتح مسيرها بقراءة فاتحة الكتاب المباركة، ويقوم أفرادها بتوديع أهاليهم لتنطلق في السير الذي تعطى إشارته من قبل الدليل ومرافقيه كالشاوش لمساعدته والخوجة الذي سيكون بمثابة القاضي الذي يفصل في المسائل التي تعترض طريق أفرادها طوال أيام السفر، وهو- أي الدليل- الذي سيختار مواقع توقف القافلة ومراحلها ونقاط سيرها وأماكن تواجد آبار المياه للتزود بها، والمناطق الخطيرة التي قد تتعرض فيها القافلة لهجوم من قبل قطاع الطرق إذ يُذّكر دوما أفراد القافلة بالتوصيات التالية: توخي الحذر، عدم إشعال النار، تحديد أوقات التوقف لشرب المياه (عدم شرب الماء مرتين)، ضرورة لبس الأحذية لتجنب الحروق التي تسببها الرمال[12]، الابتعاد عن الإبل بعد القيام بتلجيم أفواهها حتى لا تصدر أصواتها التي قد تدل عليهم اللصوص فتعرضهم لاعتداءاتهم؛ فسلامة القافلة مرتبطة كليا به بما فيها دفع مبلغ الدية عند وقوع حوادث قتل عارضة[13].

يتطرق دوماس في كتابه الثاني حول الصحراء والموسوم بـ"بالعادات والتقاليد" إلى هذه المعلومات التي سبق ذكرها، ويضيف حادثة تعرض إحدى القوافل إلى اعتداء سافر انتهى بإعلان حرب نشبت بين قبيلتين صحراويتين، ثم يبدأ بوصف مراحل تحضيرات تلك الحرب التي تبدأ بعملية استنفار المقاتلين بما فيها حريمهم وجمع صفوف المتحالفين معهم (الصف)، وتجهيز الأسلحة وجلب المؤونة، ثم بداية ممارسة طقوس الحرب التي تشمل أداء القسم بين صفوف المتحاربين لاحترام وحدة صفهم واستعمال الناي والاستعانة بالشعر لبث روح الحماسة بينهم وتحفيزهم على القتال، مع حمل البنادق لخوض غمار تلك الحرب.

لم تقتصر المواجهة على العنصر الرجالي فقط بل العنصر النسوي أيضا الذي كانت له مكانته في هذا الصراع حيث تقوم النساء بتحضير الأكل إلى غاية وقوع أحداث تلك الحرب، أو تجنبها باللجوء إلى إصلاح ذات البين بين القبيلتين المتصارعتين، والذي يرعاه أشراف تلك القبائل وشيوخها الذين يشرفون على توقيع الصلح بين الطرفين ويباركونه[14] أي "إدخال سكين الشر" أو "خُدمي الشر" حسب تعبيرهم.

2- ارتباط القافلة عند مسيرها بـ"الفال": يُذكر الخبير أو دليل القافلة المسافرين قبل إنطلاقهم بما يلي:

– لا تأخذوا الطريق عند خروجكم إذا قابلتم امرأة ذميمة، أو عجوزا أو أمة، أو عند رؤية غراب، أو عند اقتراب رجلين متخاصمين يلعن أحدهما الآخر.

– السفر يبدأ إذا وقعت عيناك على امرأة جميلة، أو فارس حسن الهيئة والمنظر، أو حصان جميل أو إذا طار غرابان مع بعضهما قبلك، أو إذا سمعت أسماء أو كلمات حسنة، ساعتها انطلق بكل ثقة؛ فالله يحرس دائما خدامه ويعلمهم الفال[15]، ويستدل في ذلك بلجوء الرسول محمد صلى الله عليه وسلم مع أبي بكر الصديق أثناء خروجهما إلى المدينة المنورة إلى بيت كلثوم إذ نودي عند دخولهما على الخادمين "مبروك وسالم"، وهما اسمان يدلان على السعادة والانتصار، وهذا كان له تأثيره قبل بداية سيرهما الذي انتهى ببسط محمد صلى الله عليه وسلم قوته على كل الأمم[16].

3- كرم الضيافة: يتميز العنصر العربي بالكرم وحسن الضيافة التي أدهشت الأعداء قبل الأصدقاء، ويذكر مثالا على ذلك برواية ما قام به السيد أبو بكر الذي استقبل إحدى القوافل الصحراوية، وقام بواجب الضيافة على أحسن وجه بالرغم من تزامنها مع خبر وفاة فلذة كبده

في ذلك اليوم، والذي لم يمنعه من القيام بواجبه بل الأكثر من ذلك أنه قام بتهديد زوجته بالطلاق إذا أجهشت بالبكاء لمصابها الجلل، وقال: "...إن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ذكر أن الله سبحانه وتعالى منح الكريم عشرين خصلة وفضل منها الحكمة والخوف من الله والفرحة والاستجابة لدعائه وغفران ذنوبه...إلخ"[17]؛ فالضيف هو ضيف الله والترحاب به ضروري، وأن العرب كلهم كانوا يكرهون الشخص البخيل وينعتونه بصفة الملعون؛ فهو ببخله لا ينتمي لقومهم بل هو من قوم اليهود[18].

4- الزواج: كانت لدوماس فرصة حضور مراسيم زواج بنت الشيخ الحاج محمد بن المهدي بمنطقة تيميمون، ويشير إلى أن هذا الزواج كان ثمرة حب متبادل، وأنه تم بعد مباركة أهل العروسين، واتفاقهم على شروط الزواج المتمثلة في دفع مبلغ قيمته مائة دورو، والحصول على خادمة، وتقديم حلي وألبسة وعطور منها خلخال وأساور وأحذية فاسية وخُف من السودان، وقطعتين من الحايك، وأعواد من القرنفل، وجذور السرقرينة (وهي جذور رائحتها طيبة تستعمل للحمى)، إضافة إلى الكحل والعطور وأفرشة فاسية وحقيبة جلدية.

أما المراسيم فتكون بتحضير وليمة للمدعوين[19]، يصاحبها إطلاق البارود، وخروج العروس دون أن تضع قدميها على الأرض حيث تحمل من قبل العبيد، أو تركب على دابة، ويدوم الاحتفال مدة أسبوع، ويؤكد على وصية الرسول محمد صلى الله عليه وسلم القاضية بتشجيع المسلمين على الزواج المبكر أو اللجوء إلى الصيام عند العجز عن اتمام نصف الدين كما يُذكر[20] بحق المرأة في طلب الطلاق من القاضي عند استحالة الحياة الزوجية بينها وبين زوجها.

ويُلاحظ من خلال كتاباته أنه تغلغل في أوساط أهل الصحراء، وعرف طرق احتفالاتهم، ورأي الدين في الطلاق، وعرض الأمثال الشعبية المتداولة بينهم، ومن جانب آخر فإنه يشير إلى خيانة المرأة لزوجها الذي أعطاه الشرع حق التعددية، وذكر أنّ الزوجة الخائنة تتحين الفرص للقيام بذلك تحت جنح الظلام، ويعطى مثالا على ذلك للتعريض ببشاعة جرمها وفضاعته: "...إذا صدقنا المثل العربي أن المرأة اليهودية فقط هي التي تشتهر باحتيالها على الشيطان؛ فلا ننسى أنه بعد الشيطان أيضا تأتي المرأة المسلمة..."[21].

5- المـــرأة: إذا كان الرجل في الصحراء يكثر من المشي، والتنزه على ظهر جواده، فإنه يقوم أيضا بتأدية واجباته الدينية، وهو معتد ومفتخر بنفسه فإنّ المرأة الصحراوية مقابل ذلك

هي التي تتحمل كل أعباء الأعمال المترلية، فتقوم بحياكة الأغطية والأفرشة بعد تلوينها وصبغها بالألوان لتستعمل فوق العطوش (خيمة توضع فوق ظهر الجمل) أو لتكون كحاجز يفصل بين المكان المخصص للرجال عن مثيله بالنسبة للنساء، وتقوم بصنع الحبال من وبر الإبل أو شعر الماعز، وتحيك البرانس، وتصنع العباءات والأواني الفخارية كما تصنع الأدوات الجلدية كـ"الغرارة" لحفظ الدقيق، والشكوة للحليب أو الزبدة، والقـــربة للمياه، إلى جانب تحضير الأطعمة لكل أفراد العائلة[22].

ومن جانب آخر فإنها عند نشوب الحروب تُحترم ولا تتعرض للأذى إلا إذا تعرض لها أناس من فئات وضيعة حقيرة، حيث يشرف شيوخ القبيلة على بعث النساء إلى أزواجهن، أما المرأة الشريفة أو المرابطة فإنها لا تتزوج إلا من قبيلتها أو من قبيلة أخرى شريفة مثلها كزواج أخت السيد حمزة من أولاد سيدي الشيخ بملك المغرب مولاي عبد الرحمن[23].

6- اللـــباس: كانت ألبسة أهل القصور بسيطة تشتمل على العباءة مع سروال يشبه السروال الأوربي، أما العرب فيلبسون الشاشية والبرنوس، أما بالنسبة للنساء فلباسهن يتمثل في عباءات بدون حزام، وحايك وخلخال في الأرجل، وأساور فضية وذهبية أو من المرجان الأسود، وعند قبيلة زناتة فإن المرأة لا ترتدي الحجاب عكس نساء الأشراف اللواتي لا تخرجن أبدا بوجه مكشوف، كما تقوم النساء العربيات برسم وشم في كل من الجبهة والوجنتين أو اليدين[24].

7- الـــزوايا: يذكر دوماس في كتاباته الزوايا التي صادفتهم أثناء سيرهم قبل وصولهم إلى بلاد الطوارق ومنها زاوية سيدي عبد القادر[25]، وزاوية سيدي محمد مول القندوز[26]، وزاوية سيدي عومر، وزاوية البلبالي[27]، وزاوية أولاد سيدي الشيخ، ويشير إلى ارتباط الناس بها ارتباطا وثيقا، واستجدائهم بأوليائها لتوفير الحماية لهم أو لطلب الشفاء من الأسقام، ورفع الغبن عنهم بمعجزات وكرامات خارقة، وهذا بعد إقامة ولائم فخمة على شرفهم تُعرف بالوَعدة.

8- طقوس السحر: يستعمل العرب والزناتيون (البربر) كثيرا الحروز أو الحجابات في العنق، وهي تشبه حال ووضعية الأوربيين في العصور الوسطى حسب رأيه، ويذكر أن الطُلبة من الرجال وبعض النسوة الخبيرات (العجائز) يستخدمون مستحضرات من أعشاب مختلفة تحضر بواسطة ذكر طلاسم وبطريقة مخيفة عندما تخلطها مع بعض المواد التي لا يعرفها غيرهم،

وتستعمل هذه الوصفات إما من أجل جلب المحبة أو غيرها مثل الانتقام والكيد للأعداء، ويستعملون فيها ورقة مكتوبة بماء الزعفران، وعظام الموتى، والسكاكين ومأكولات مختلفة، وقطع نحاسية وغيرها، ويشير إلى أن هذه الطقوس تؤثر تأثيرا كبيرا على صحة المسحور الذي يتأذى منها كثيرا[28].

9–الطوارق: يُفرد لهم فصلا خاصا بهم يحدد فيه مواقع تواجدهم، وأصلهم الذي يحتمل أنه من جنس الأتراك مع ملاحظة أنه لا يريد الخوض في هذا الرأي، وأن العرب يعاملونهم معاملة شعب مهزوم، وأن ديانتهم الإسلامية ليس لهم منها غير الاسم حسب رأيه القادح فيهم، فالمبارزة مثلا تشغلهم أكثر من أداء فرائض الصلاة، وذبائحهم تقطع رؤوسها بدلا من الذبح الشرعي، كما أنهم لا يميلون إلى الزواج المتعدد في حياتهم، ويقومون بتدخين الغليون دون تمييز بين رجالهم أو نسائهم، ودورهم الأكثر أهمية في المنطقة هو احتراف التجـــارة وحماية القوافل، ومن أبرز ما يميزهم وضع اللثام على وجوههم، والذي اشتهروا به دون غيره[29].

10–الـــدين: لم يترك شيئا دون تعمق ودراسة عن العقيدة الإسلامية بجميع فروضها وواجباتها من طهارة وصلاة، بما فيها صلاة الاستخارة وكيفية تأديتها إضافة إلى فريضة الزكاة والحج [30]، والإيمان بالقدر حيث ناقش هذه الأمور وتطرق إليها، وذكر أمثلة دقيقة عن كل تلك الواجبات فسفر الأعرابي يكون بفضل الله، والرزق مقسوم بمشيئته فهو الذي يوفر للإنسان طعامه وشرابه، وأن المسلم يسير وفق منطق "مكتوب ربي" كما قال:.. " **écrit de dieu**"، بل ويضيف على ذلك أن هذه الاتكالية طبعا على الله سبحانه وتعالى تجعل العربي يضيع الوقت دون إدراك لقيمته فالوقت عنده لا يعني شيئا"[31]، « **C'est la l'Arabe : le temps n'est rien pour lui** »

11– شيخ القبيلة: العربي يفتخر دوما بحريته واستقلاليته فشيخ القبيلة هو الذي يسير أموره، في هذه الأرض الشاسعة التي لا يحكمها سلطان معين، وهو الذي يضمن له العدالة ويحدد نوعية العقوبات عند حدوث التجاوزات أو وقوع المظالم، فمن سرق شاة تكون عقوبته بدفع غرامة تقدر بـــ**10** بوجو، ومن دخل خيمة جاره لرؤية زوجته يدفع قيمة **10** شياه[32]، فالسلطة هنا هي لشيخ القبيلة والجماعة فقط.

12– الأسلحة وتربية الخيول: بالنسبة للأسلحة فإن عرب الصحراء أقل تسليحا من أهل التل بالرغم من أن قادتهم لا يبخلون عن أنفسهم بمباهج وكماليات الحياة، وأسلحتهم

تأتيهم من البلاد التونسية، ومن تقرت وبلاد القرارة كما أنهم لازالوا يستعملون أسلحة تقليدية متمثلة في الرماح التي تصنع محليا، أما البنادق فهي تستورد من الدول المجاورة لهم ولا تصلّح عندهم بل تصلّح في المناطق التلية[33].

أما عن تربية الخيول فإنها بالنسبة للعربي رفيقة سلاحه، والحصان هو بمثابة الصديق وخادم العائلة، وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم، وتحدث عنها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم الذي شجع العرب على تربيتها ومرافقتها؛ فحصة الفارس مضاعفة عن حصة المشاة، فهي مصدر الثروة والمجد ومكانتها محفوظة في الجنة التي تأتي فيها وهي مجنحة"[34]، وقد أدرك الأمير عبد القادر هذه الأهمية، وعاقب كل من فام ببيع تلك الخيول إلى شخص أجنبي مسيحي[35]، وهو نفس الشيء بالنسبة لكل الدول الإسلامية كالمغرب وتونس وليبيا ومصر، والقسطنطينية[36]، ولم يقتصر الأمر على تربية الخيول بل أيضا على تربية المهاري(الإبل).

13- الشعر والأمثال الشعبية: قام دوماس بترجمة الشعر الذي تم نظمه في القطر الجزائري سواء كان ذلك في المناطق التلية أو الصحراوية، وفي كل المجالات السياسية أو الدينية أو حتى العاطفية، فكما ذكر وصف منطقة المتيجة[37] بجمالها، وصف أيضا احتلال الجزائر أو البهجة التي هي الآن حسب هذه القصيدة مستعمرة:

هي الآن في قبضة الفرنسيين

يمشون على أرضها بأعداد لا يعلمها إلاّ الله

وإذا سقطت أم المدائن فماذا بقي لكم أيها المسلمون[38].

ويواصل هذا الشعر الغنائي التراثي الذي ينتهي بطلب الناظم السماح والمغفرة من الله له وللأمير عبد القادر ولأهله ولأصدقائه، وإلى كل الحاضرين أو الغائبين، وليكن مثواهم جميعا الجنة[39]، أما بالنسبة للشعر ومكانته في الصحراء الجزائرية فقد وصفت به ملامح الحياة الصحراوية بكل تفاصيلها على حد قول أحد المرابطين:

البدوي يقيم في هذه الأرض الواسعة

من حوله لا شيء يؤثر في سكونه

ففي يومه لا يسمع غير جعجعة الإبل

وفي ليله سوى صراخ ابن آوى وملك الموت (عزرائيل)

مترله عبارة عن قطعة من قماش مبسوطة بعظام مغروسة في الرمال، يتمتع بصيد النعام والغزلان، حياته كلها بسيطة وهو سعيد بها أيما سعادة:

– وهو الآن هذا المسلم السعيد

– يحمد الخالق راض بقدره

– فهو في مأمن من السلاطين وتقلبات أمزجتهم

– حر يضمن له الله رزقه دون عناء[40]

يستشهد دوماس بتلك الأشعار في كل كتاباته التي لم يستثن منها شيئا، أما الأمثال الشعبية فقد ترجمها إلى اللغة الفرنسية بمفرداتها العربية، ثم علق عليها بلغته ومنها ما يلي:

– الحفا يقلل البصر، ويقلل من الجهد.

– لا تشربوا من فم القربة لأنه كالشرب من فم الأفعى[41].

– الخيل للبلا (البلاء)، والإبل للخلا (الخلاء)، والبقر للفقر[42].

كانت كتابات دوماس دقيقة جدا لم تهمل شيئا عن حياة الجزائريين في كل مراحلها، مثل عادات أهلها وطقوسهم وأشعارهم، وحتى طريقة تفكيرهم؛ فكان يسير معهم، ويناقشهم سواء كانوا في الجزائر أو في فرنسا، وكانت لديه رغبة جامحة في جمع انطباعاته عن بلادنا وعاداتنا وحضارتنا لتكون كدليل للمسافرين إلى البلاد العربية بل إنه استغل فرصة وجود أحد الشعانبة في باريس، وجعله نموذجا يستشهد بانطباعاته ورأيه حول فرنسا فيقول: إن هذا الشعانبي قال له: "...أنكم إذا صدّقتم بوجود إله واحد، وبرسالة نبيه محمد عليه الصلاة والسلام فإنكم ستدخلون الجنة قبلنا[43]، أما عن رأيه في الحياة بفرنسا فإنها تعجبه في صرامة قيادتها ومنشآتها وسياراتها وسفنها ومأكولاتها وجيشها النظامي ومنتجاتها.. إلخ.

واعتبر دوماس هذا المدح وساما لحضارتهم التي يجب أن يبذلوا مجهودات مضاعفة لنشرها في أوساط العرب الذين للأسف يظهرون ذكاءهم حتى في إصدار أحكامهم على أنفسهم، فهم ليسوا متوحشين كما كنا نظن حسب رأيه، وحياتهم حاولنا ترجمتها بكل صدق، فعندما نركز على كلمات هذا الشعانبي ندرك أن عملنا (الغزو) مرتبط بكل بساطة بجمع كل العوامل المتناقضة، وإذا كانت عبقرية الأوروبي مرتبطة بالصناعة؛ فإن عبقرية المشرقي هي الفراغ، وفكره ما زال قديما وبدائيا، وأنني (أي دوماس) لا أفقد الأمل في الهدف الذي تريد قواتنا الوصول إليه، والذي نستشفه من اهتمامات هذا الشعانبي ومن طريقة حديثه هو تدوين وذكر

كل ما سمعته لأترك المجال لغيري ليستخلص النتائج، ويفسر ألغاز هذا الفكر الإنساني الغريب في منطقه[44].

لم يكن دوماس هو الوحيد الذي قام بتشريح وضعية المجتمع الجزائري بل توالت الرحلات والدراسات الميدانية التي مهدت لاحتلال الصحراء الجزائرية، ويمكن أن نذكر البعض منها مثل كافنياك cavaignac [45]، دو كولومب Decolmb[46]، لو شاتولي Le Chatelier[47]، وسباتي Sabatier [48] ومارتان Martin وقوتي Gautier[49] وغيرهم؛ فكل كتاباتهم كانت تصب في هذا القالب، ولقد ساهمت بقدر وافر في فتح الأبواب للجنود الفرنسيين الذين تمكنوا بواسطة هذه المعلومات الدقيقة من استعباد الشعب الجزائري، ومن ترابه انطلقت فلولهم إلى تونس والمغرب ثم باقي المناطق الإفريقية لنشر حضارة الرعب والقتل والتشريد عكس ما تظاهرت به من أنها كانت تهدف إلى الارتقاء بهذه الشعوب البدائية إلى مصاف الشعوب المتحضرة.

استطاع دوماس أن يتغلغل في أوساط المجتمع الجزائري، وأن يعرفه عن قرب، حيث عرف عاداته وتقاليده وديانته وطريقة تفكيره وأكله ولبسه، وحتى عواطفه من خلال القصائد الشعرية، وعرفه في التل كما في الصحراء، وتفطن إلى مواطن قوته وضعفه، واستعمل كل تلك الخبرة والمعارف في تحقيق أهداف دولته الاستعمارية، فتفوق على الجزائريين وأخضعهم إليه وإلى دولته قرابة 132 سنة، وتوجت أعماله باحتلال الفرنسيين منطقة الأغواط والجلفة في سنة 1852م، ثم بدأ توغلهم في باقي مدن الجنوب كعين صالح 1883- 1900م، ثم كامل التراب الجزائري، ويمكن أن نستخلص من كتاباته النتائج التالية:

- التوسع بأقل التكاليف العسكرية والمادية.
- تحضير الوسائل الملائمة لمواجهة الجزائريين.
- وضع تلك المعرفة في يد الآلة العسكرية.
- القضاء على الإسلام بعد التعرف عليه وعلى معتنقيه عن قرب.
- التفوق الأوروبي وعدم اهتمام العرب بعامل الزمن (دون نسيان أن الحضارة الإسلامية كانت هي أساس تطورهم) أي نظرة استعلاء.
- وصف المسلمين بالاتكالية (مكتوب ربي) والاستهزاء بإيمانهم واعتقادهم بالله.
- نشر التفرقة في بداية كتابه العادات بذكر نوع من التلاسن بين أهل التل والصحراء.

– ضرب عفة المسلمين باتهام نسائهم بالخيانة.

الهوامش:

1- محمد البشير مغلي: مناهج البحث في الإسلاميات لدى المستشرقين وعلماء الغرب، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات 1422-2002،ص 41.

2-Daumas(E) : Mœurs et coutumes de l'Algérie, Introduction d'A. Djeghloul, La Bibliothèque arabe Sindbad, Paris, 1988, PP14, 15.

3- هنري تشرشل:حياة الأمير عبد القادر،ترجمة وتقديم وتعليق أبو القاسم سعد الله،عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص ص158،161.

4- يذكر أندري نوشي أن تقرير ليون روش عن الأسلحة التي تلقتها الجزائر من المغرب هي 160 قنطار من البارود و4500 بندقية وغيرها. أندري نوشي وآخرون، الجزائر بين الماضي والحاضر، ترجمة رابح ومنصف عاشور، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، 1984، ص 267.أبو العيد دودو: الجزائر في مؤلفات الرّحالين الألمان 1830-1855، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1989، ص 129. يوسف مناصرية: مهمة ليون روش في الجزائر 1832-1847، المؤسسة للوطنية للكتاب، الجزائر 1990، ص 31.

5- هنري تشرشل:المصدر السابق، ص321.

6- Daumas : op.cit, pp 17,18.

7- شارل روبير أجيرون:تاريخ الجزائر المعاصرة، ترجمة عيسى عصفور،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر،ط2،1982،ص38.

8- Daumas (E) : le Grand désert itinéraire d'une caravane sur Sahara au pays des Négres Royaume de Haoussa, paris 1848, préface, P3.

9- Ibid.

10-Mayer كتابات الجنرال ماير Renaud والجنرال رينو 1847 Ibid,pp11,12.

11-Ibid, pp6, 7.

12- Ibid, pp 06,30.

13- يذكر رواية عبد المطلب جد الرسول محمد عليه الصلاة والسلام، الذي افتدى ابنه عبد الله بـ 10 جمال حتى يجنبه الموت حيث أوصلت عملية ضرب القداح الفدية إلى 10 مرات أي 100 جمل وهي مصدر الدية التي حددت بـ 100 جمل منذ تلك الآونة. الطبري، تاريخ الأمم و الملوك، ج1، مراجعة وتقديم نواف الجراح، دار صادرن بيروت، ط1، 1424-2003، ص 304-305.

Daumas : le Grand, Op.cit, pp 33,35

14- Daumas : Mœurs, OP. cit PP216, 230.

15- Ibid, pp12, 14.

16- ملاحظة أن هذا النجاح لم يكن وليد الفال بل لحكمة إلهية فالرسول صلى الله عليه وسلم أرسل للناس كافة، أي رسالته عالمية.

Ibid, pp12, 14.

17- Daumas: le Grand, Op. cit, P42.

18-Ibid, p 40. Mœurs, Op. cit, P200.

19-Ibid, pp74, 80. L. Colomb : Notice sur les oasis du Sahara, et les Routes qui y conduisent, paris 1860, pp 45,46.

20- Daumas : le Grand, Op. cit, pp72, 80.

21- Daumas: Mœurs, Op, cit, P224.

22- Ibid, p199.

23-Ibid, pp196, 199.

24- Daumas, le Grand, Op. cit, pp61, 62.

25- Ibid, pp20,22.

26- Ibid, pp88, 89.

27- Ibid, pp100,102.

28- Daumas, Mœurs, Op. cit, P200.
29- Ibid, pp265, 272.
30- Ibid, pp115, 215.
31- Ibid, pp115, 215.
32- في جانب آخر يذكر أن المرأة تخون زوجها في حين ان القانون هنا يغرم من تعدى على حرمة جاره. Ibid, p199.
33- Ibid, p198.
34- له كتاب عن الخيول العربية صدر في سنة *1858*. Ibid, pp205.215.
35- التسولي: أجوبة التسولي عن مسائل الأمير عبد القادر في الجهاد دراسة وتحقيق عبد اللطيف أحمد الشيخ محمد صالح ، دار الغرب الإسلامي، ط*1* ، *1996*، ص *142*.
36- Daumas: Mœurs, op.cit, p207.
37- Ibid, pp45, 52.
38- Ibid, pp114, 124.
39- Ibid, p124.
40- Ibid, pp197, 198.
41- Ibid, pp114, 124.
42- Ibid, p17.
43- Ibid, 208.
44- Ibid, pp108, 111.
45- Caviaignac : Expédition de Général Cavaignac dans le Sahara Algérien en Avril Et Mai, paris, 1849,p 339.
46- Colomb : notice sur les oasis sur Sahara,p 128.
47- Le Chatelier : la sanglante Epopée des Médaganat pillards et Hors la loi du Sahara, 1860-1885, présentation de Abderrahmane Rebahi, ed grand Alger livres, 2007, p 182.
48- Sabatier (c) : Touat, Sahara et soudan, paris, 1891, p 336.
49- Martin : les oasis sahariennes, paris 1908, p 404 Gautier (E,F) : Sahara Algérien, paris, colin, 1908,p 371.